العدد 2458 - السنة التاسعة
الأربعاء 27 رجب 1437 - الموافق 4 مايو 2016
Wednesday 4 May 2016 - No.2458 - 9th Year

إعداد : ياسر السيد

رحلة لم يسبق لبشر أن قام بها

«الإسراء والمعراج» .. منحة ربانية لتثبيت الفؤاد

تعد معجزة الإسراء والمعراج آية من آيات الله تعالى التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى، ورحلة لم يسبق لبشر أن قام بها، أكرم الله بها نبيَّه محمد.

إنها رحلة الإسراء والمعراج التي أرى اللهُ فيها النبيَّ عجائبَ آياته الكبرى، ومنحه فيها عطاءً رُوحيًا عظيمًا؛ وذلك تثبيتًا لفؤاده، ليتمكّن من إتمام مسيرته في دعوة الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ولتكون تمحيصًا من الله للمؤمنين، وتمييزًا للصادقين منهم، فيكونوا خليقين بصحبة رسوله الأعظم إلى دار الهجرة، وجديرين بما يحتمله من أعباء وتكاليف.

أمّا الإسراء[1] فهي تلك الرحلة الأرضيّة وذلك الانتقال العجيب، بالقياس إلى مألوف البشر، الذي تمّ بقدرة الله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، والوصول إليه في سرعة تتجاوز الخيال، يقول تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء:1].

وأمّا المعراج فهو الرحلة السماويّة والارتفاع والارتقاء من عالم الأرض إلى عالم السماء، حيث سدرة المنتهى، ثم الرجوع بعد ذلك إلى المسجد الحرام، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم:13-18].

وقد حدثت هاتان الرحلتان في ليلة واحدة، وكان زمنها قبل الهجرة بسنة، على أنه أثير حول الإسراء والمعراج جدل طويل ونساؤلات عدّة، فيما إذا كانت قد تمت هذه الرحلة بالرّوح والجسد، أم بالروح فقط؟ ومتى وكيف تمت؟

هل الإسراء والمعراج معجزة؟

قبل الشروع في الإجابة على هذه الأسئلة نجيب أوّلا عمّا إذا كانت رحلة «الإسراء والمعراج» معجزة أم غير ذلك؟

فالمعجزة -كما هو معروف- هي أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدّي، سالم عن المعارضة، يَظْهر على يد مدعي النبوّة موافقا لدعواه[2]، وكانت تُطلب من الرسول برهانا ودليلا على صدقه، «باعتبار أن الشواهد الماديّة والمعنويّة الخارقة للمعتاد المألوف في قوانين الكون وانتظمته تضع الباحث عن الحق أمام البرهان الواضح الدال على صدق الرسول في دعواه الرسالة؛ ذلك لأن الذين يتحدّاهم الرسول بالمعجزة لا يستطيعون الإتيان بمثلها منفردين أو مجتمعين، في حدود قدراتهم الممنوحة لهم بحسب مستواهم»[3].

ومعنى ذلك أنّ المعجزة يُجريها الله على يد الرسول تأييدًا له، وأنّ الرسول يتحدّى قومه بهذه المعجزة؛ ليتأكدوا أنها من قِبَل الله ، ومن ثَمّ يتأكدون من صدقه، وأنه مؤيّد من السماء، وذلك بعد أن يَظْهَرَ لهم عجزهم عن الإتيان بمثلها، كما هو الحال مع معجزة القرآن الكريم.

وعلى هذا الضوء يمكننا أن نفسّر حادث الإسراء والمعراج؛ «فالرسول لم يتحدّ أحدًا بهذه الرحلة، ولم يطلب من المشركين أن يُعارضوه فيأتوا بمثلها، ولذلك إذا قلنا: إنها معجزة، فإننا نقول ذلك على سبيل المجاز؛ فهي أمر خارق للعادة، ولكنه لم يكن للتحدّي، ولم يرَهُ الناس بأعينهم حتى يؤمنوا به كإحدى معجزات النبوّة، وإنما كان تسلية للنبي ، واختبارًا للمسلمين المقبلين على مراحل أخرى من الجهاد يعلّمها الله؛ كالهجرة وما بعدها من بناء دولة الإسلام الثابت الدعائم، القويّ الأركان»[4].

القلب الذي يحمل الخير للجميع يستحق أن يسري الله عنه

«لنريه من آياتنا»

القلب الذي يحمل الرأفة لأمته ما زال يتسع للمزيد من الصبر، والنفس التي ارتقت إلى أعلى مقامات الرقي والثبات ما زالت تبث الدفء حولها، واليد التي امتدت منذ أول لحظات الوحي بالرسالة الطيبة العظيمة، مازالت تمتد بالعطاء والتوضيح والإشفاق على الأهل والعشيرة، والروح التي اخلدت بسكينة ويقين واستسلام لربها وامتثلت لتكليفه بنشر الخير المنزل بالرحمة والغيث والمواساة والكرامة لكل أطياف البشرية، ما زالت هذه الروح الندية تتوق إلى بث الهدى والنور على كافة أرجاء البسيطة.

وذلك كله برقيّ معانية وجميل عطاءه، وجود نداه، ولمسة حنوّه وانبثاقة دفئه ونوره، يتمثل في شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أرسله الربّ الرّحيم بالرسالة الراشدة الرشيدة، رحمة للعالمين وهدى للبشرية التي ضلت الطريق، وأضاعت القيم الإنسانية، وتلبست برداء الضلالة والقسوة والفرعنة والجهل والظلم، حتى أصبحت الأرض مكانا بغيضا لكل من سيم الهوان واستعبد واسترق وسلب كرامته وامتهنت إنسانيته، فأشرق حينها النور البهي والكوكب الدرّي، وأطلت شمس اللطف الرباني ساكبة شعاعها النيّر في كل قلب متفتح لنور الله، ولكن القلب الذي حمل كل هذا الخير للأمة، تعتريه حالة المشاعر الإنسانية، فيا صاحبه صلى الله عليه وسلم إلا بشر مثل سائر البشر، ولكنه فضل بالرسالة والنبوة والكمال وأتم ربّه عليه نعمة الخلق والخلق، تعتريه حالة الحزن والألم والفقد، وتؤذيه حالة التكذيب والعداء التي يواجهه بها أهل الباطل، وهم يصدون عنه صدودا، فيجتمع عليه الم فقد زوجته الداعمة خديجة بنت خويلد، وعمّه العطوف المشفق أبا طالب فلا يجد إلا الصبر الجميل، والتجلد النبيل، والشعور بالقرب الرباني، فيبثّ شكواه وحزنه إلى الله، وهو يرجوه أن يغفر لقومه بانهم لا يعلمون.

بحثا عن النصير

وتمضي الأيام الحزينة قدما والهمّة النبويّة المتوجهة لربّها جل وعلا في أوج انطلاقتها والنبي صلى الله عليه وسلم يعرض دعوته على قبائل العرب، على أمل ان يكون فيها زعيم رشيد لا يرى في الإسلام تهديدا لنفوذه، أو حدّا لعنجهيته، ولكن القلوب الصماء والعيون التي تنظر ولا ترى والقلوب التي سكنها الصدأ عقودا، لا تلين لكلمات الله، وحدها تلك النفوس الرقيقة والقلوب الكليمة والأرواح الطامحة للحرية، آمنت بآيات الله، وحدها تلك الأبدي المكبلة بقيود العبيد وتلك الطبقة المحتقرة لفقرها، أو بساطة أصلها، او قلة نفوذها، سارعت إلى جنة عرضها السماوات والأرض، ولم تخل الفئة المؤمنة المستضعفة من اولئك النبلاء والأغنياء والكرماء، اولئك الذين وجدوا في دعوة النبي صلى الله عليه وسلم ورسالته صدى أفكارهم النقية الرافضة لواقع الجاهلية المقيت فصدّقوا به ونصروه وواسوه قدر استطاعتهم، دون تردد ولا تقصير.

رحلة الإسراء والمعراج

من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى

والحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، يرهقه طول المسير، وشعور الحزن وعتت الجبابرة، وهو صابر مصابر مرابط في أم القرى مجاور للبيت الحرام، ويمنّ الربّ الرحيم على نبيه الكريم، وتكون رحلة الإسراء والمعراج، ويحمل المصطفى صلى الله عليه وسلم، على ظهر البراق ساريا في ليلة أشرق فيها البدر بهاء، وهو يرقب الرحلة الشريفة، تمد جسر البركة والتلاحم والتشريف الرباني، كخيط من ضياء وتوحيد وذكر وصلاة وعبادة، ما بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى، ليظل هذا الجسر ممتدا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

سيظل المسجد الحرام، بيت الله ومكان الحج الركن الخامس من أركان الإسلام، وسيظل الأقصى المبارك موطن الجهاد ومكان ذروة سنام الإسلام، وسيبقى ساحة فداء للطائفة المنصورة المرابطة في سبيل الله لا يضرها من عاداها، سيظل المسجد الحرام قبلة الصلاة وموقع الطواف وبيت الله الحرام ومن دخله كان آمنا، وسيظل المسجد الأقصى مسجدا تشد إليه الرّحال، وتسنّ الصلاة فيه، فإن عزّت الصلاة فيه على مسلم فليرسل بزيت بضاء في قناديله.

إلى السماوات العلى

وهناك في الأقصى المبارك، أمّ خير الخلق، حين أهل نور الفجر بالرسل الكرام، وهناك كانت رحلة المعراج تمضي للسماء، ويحط ركب المصطفى الميمون في أرجاءها، ويرى من آيات ربّه الكبرى، ويعود إلى أمته بكنز الخيرات، وسرّ البركات، يعود بخمس صلوات مكتوبة مفروضة، من أداها بحقها كان له أجر خمسين صلاة، ويعطى ما لم يعط سواه من الخلق، عليه أفضل صلوات الله، ويعود النبي صلى الله عليه وسلم من رحلته المباركة، مبشرا بجنة رآها رأي العين، ومنذرا نارا وقودها الناس والحجارة قد رآها رأي العين، وتسخر العقول الجامحة بفرعنتها من آيات الله، فتخزى في الدنيا والآخرة، وتزداد القلوب المؤمنة إيمانا وتصديقا، فتفوز برضى ربها في الدنيا والآخرة.

سورة الإسراء

وتتنزّل سورة الإسراء تؤكد بركة هذه الرحلة النبوية الطيبة: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء:1].

«الحكمة من الإسراء والمعراج»

إذا أردنا أن نتلمس الحكمة من رحلة الإسراء والمعراج المباركة، فقد عدّد السيوطي مجموعة طيّبة منها، فقال عن الحكمة من الإسراء: إنما كان الإسراء ليلا لأنه وقت الخلوة والاختصاص غالبًا، ولأن وقت الصلاة التي كانت مفروضة عليه في قوله تعالى: ﴿قم اللّيل﴾ [المزمل: 2][1].

ويقول الشيخ أبو محمد بن أبي حمزة:

«الحكمة في الإسراء إلى بيت المقدس قبل العروج إلى السماء إرادة إظهار الحق لمعاندة من يريد إخماده؛ لأنه لو عرج به من مكة إلى السماء لم يجد لمعاندة الأعداء سبيلا إلى البيان والإيضاح، فلمّا ذكر أنه أسري به إلى بيت المقدس سألوه عن تعريفات جزئيات بيت المقدس كانوا قد رأوها وعلموا أنه لم يكن رآها قبل ذلك، فلمّا أخبرهم بها حصل التحقيق بصدقه فيما ذكر من الإسراء إلى بيت المقدس في ليلة، وإذا صحّ خبره في ذلك لزم تصديقه في بقيّة ما ذكره، فكان ذلك زيادة في إيمان المؤمن، وزيادة في شقاء الجاحد والمعاند»[2].

ومع ما ذكر من حكمة إسراء النبي إلى بيت المقدس أوّلا فإن هناك دلالة أخرى على مدى ما ينبغي أن يُوجد لدى المسلمين في كل عصر ووقت، من الحفاظ على هذه الأرض المقدّسة، وحمايتها من مطامع الدخلاء، وأعداء الدين، وكأنّ الحكمة الإلهيّة تهيب بمسلمي هذا العصر أن لا يهينوا، ولا يجبنوا، ولا يتخاذلوا أمام عدوان اليهود على هذه الأرض المقدسة[3].

وأمّا الحكمة من المعراج فإن في دلالة اختيار النبي اللبن دون الخمر، دلالة رمزيّة على فطرة الإسلام وثوابته الأصيلة، الموافقة للطباع البشريّة كلها، كما أن في بقاء أبواب السماء مغلقة حتى استفتح جبريل ولم تنهيأ له بالفتح قبل مجيئه أنها لو فُتحت قبل لظنّ أنها لا تزال كذلك، فأبقيت ليُعلم أن ذلك لأجله ؛ ولأن الله تعالى أراد أن يُطلعه على كونه معروفا عند أهل السموات؛ لأنه قيل لجبريل لما قال للنبي : أبُعث إليه؟ ولم يقل: مَن محمد؟ مثلا[4].

وقال السيوطي أيضًا: «الحكمة في كون آدم في الأولى أتته أوّل الأنبياء وأوّل الآباء، وهو أصل فكان أوّلا في الآباء، ولأجل تأنيس النبوّة بالأبوّة، وعيسى في الثانية لأنه أقرب الأنبياء عهدا من محمد ، وليلته يوسف؛ لأنّ أمّة محمد يدخلون الجنّة على صورته، وإدريس قيل: لأنه أوّل من قاتل للدّين فلعل المناسبة فيها الإذن للنبي بالمقاتلة ورفعه بالمعراج؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: 57]، والرابعة من السبع وسط معتدل، وهارون لقربه من أخيه موسى، وموسى أرفع منه لفضل كلام الله، وإبراهيم لأنه الأب الأخير، فناسب أن يتجدّد للنبي بلقياه أنس لتوجّهه بعده إلى عالم آخر، وأيضا فمنزلة الخليل تقتضي أن تكون أرفع المنازل، ومنزلة الحبيب أرفع؛ فلذلك ارتفع عنه إلى قاب قوسين أو أدنى».

وقال أيضا: اقتصر الأنبياء على وصفه بالصالح، وتواردوا عليها؛ لأن الصلاح تشمل خلال الخير؛ ولهذا كرّرها كل منهم عند كل صفة[5].

وقد ذكر القرطبي كذلك أن الحكمة في تخصيص موسى بمراجعة النبي في أمر الصلاة، قيل: لأنه أوّل من تلقاه عند الهبوط؛ ولأنّ أمّته أكثر من أمّة غيره؛ ولأنّ كتابه أكبر الكتب المنزّلة قبل القرآن تشريفا وأحكامًا، أو لكون أمّة موسى قد كلّفت من الصلوات بما لم تكلف به غيرها من الأمم، فثقلت عليهم، فأشفق موسى على أمّة محمد ، ويؤيّد ذلك ما ذكر في الرواية السابقة بقوله : «أنا أعلم بالناس منك». ولعل الحكمة في تخصيص فرض الصلاة بليلة الإسراء والمعراج أنه لما عرج به في تلك الليلة تعبّد الملائكة، وأن منهم القائم فلا يقعد، والراكع فلا يسجد، والساجد فلا يقعد، فجمع الله له ولأمّته تلك العبادات كلها: يصليها العبد في ركعة واحدة، بشرائطها من الطمأنينة والإخلاص، وفي اختصاص فرضيتها بليلة الإسراء إلى عظيم بيانها؛ ولذلك اختصّ فرضها بكونه بغير واسطة بل بمراجعات تعدّدت[6].

ونضيف إلى ذلك أن الله تعالى أراد أن يُعدّ رسوله لمرحلة جديدة من مراحل الدعوة الإسلاميّة، هذه المرحلة تشبه المرحلة التي رأى فيها موسى آيات الله تعالى، وهي مرحلة مجابهة فرعون؛ فقد قال الله تعالى عن موسى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [طه: 22-23]. فموسى الذي سيقابل فرعون الطاغية قد هُيّئ بهذه الرؤية لاحتقار كل القوى الأرضيّة ما دامت معه قوّة الله تعالى، والرسول كان مأمورًا بالصبر طيلة الفترة المكية، ثم إنه بعد الهجرة أمر بالمجابهة، وكان الإسراء والمعراج قبل الهجرة بقليل -بعام واحد على أصحّ الأقوال- فكانت رؤية آيات الله الكبرى تمهيدًا لهذه المرحلة التي سيقف فيها رسول الله بالثلة من أصحابه في وجه الدنيا كلها، فقال تعالى في أوائل سورة النجم عن المعراج: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: 18][7].

فهذه الحادثة الجليلة أوضح الله تعالى بها أنه قادر على كل شيء، وأن محمدًا الفقير المعذّب هو وأصحابه في مكة استطاع ربّه جل وعلا أن يوضح له مدى الضآلة التي يعيش فيها هؤلاء الكفرة، بل جعله الله خير خلق الله تعالى، فبإمامته للأنبياء في المسجد الأقصى وعروجه على الأنبياء الصالحين في السموات السبع، ثم وصوله لسدرة المنتهى يكن النبي قد ألبس من العظمة الربانيّة رداء لم يلبسه أحدٌ من قبله، ولن يلبسه أحد من بعده.

موقف أهل مكة من «الإسراء والمعراج»

بعد رحلة الإسراء والمعراج العطرة، أراد النبي أن يكشف لأهل مكة جميعًا ما كان له؛ فقد روى ابن عبّاس قال: قال رسول الله : «لما كان ليلة أسري بي وأصبحت بمكة فظعت بأمري، وعرفت أن الناس مكذبي . فقعد معتزلا حزينا، قال: فمرّ عدوّ الله أبو جهل، فجاء حتى جلس إليه، فقال له كالمستهزئ: هل كان من شيء؟ فقال رسول الله : «نعم» . قال: ما هو؟ قال: «إنه أسري بي الليلة» . قال: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس» . قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: «نعم» . قال: فلم ير أنه يكذبه مخافة أن يجحد الحديث إذا دعا قومه إليه، قال: أرأيت إن دعوت قومك تحدثهم ما حدثتني؟ فقال رسول الله : «نعم» . فقال: هنا يا معشر بني كعب بن لؤي، حتى قال: فانتفضت إليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما، قال: حدث قومك بما حدثتني، فقال رسول الله : «إني أسري بي الليلة» . قالوا: إلى أين؟ قلت: «إلى بيت المقدس» . قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: «نعم» . قال: فمن بين مصفق ومن بين واضع يده على رأسه متعجبا للكذب زعم قالوا: وهل تستطيع أن تنعت لنا المسجد؟ وفي القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد، فقال رسول الله : «فذهبت أنعت، فما زلت أنعت حتى التبس علي بعض النعت - قال - فجيء بالمسجد وأنا أنظر، حتى وضع دون دار عقال أو عقيل، فنعته وأنا أنظر إليه» . قال: وكان مع هذا نعت لم أحفظه، قال: فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب[1]. وهذه الحادثة معجزة أخرى؛ فقد أراه الله تعالى المسجد الأقصى أمامه، ينعته لأهل مكة، يصف أبوابه ومخارجه، وصفا بحيث السامعين له، ويؤكد لمن أتى مشككا في نبوّته أنه نبي مُرسل من قبل الله، وكان موقف صحابة النبي ثابتا راسخا في قرارة أنفسهم.

ومن أعظم المواقف التي دلّت على رسوخ اليقين عند أبي بكر ما ذكره ابن المسيب، قال: إن رسول الله حين انتهى إلى بيت المقدس لقي فيه إبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم السلام، وأتي بقدحين: قدح لبن، وقدح خمر، فنظر إليهما، ثم أخذ قدح اللبن، فقال له جبريل: «هديت الفطرة، لو أخذت الخمر لغوت أمتك» . ثم رجع رسول الله إلى مكة فأخبر أنه أسري به، فافتتن ناس كثير كانوا قد صلوا معه. قال أبو سلمة بن عبد الرحمن: فتجهز ناس من قريش إلى أبي بكر، فقالوا له: هل لك في صاحبك، يزعم أنه قد جاء بيت المقدس ثم رجع إلى مكة في ليلة واحدة؟!

فقال أبو بكر: أو قال ذلك؟

قالوا: نعم.

قال: فأشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق.

قالوا: فتصدّقه بأن يأتي الشام في ليلة واحدة، ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح؟!

قال: نعم، إني أصدّقه بأبعد من ذلك! أصدّقه بخبر السماء. قال أبو سلمة: فبها سُمّي أبو بكر الصدّيق [2].